اغتيال زعيم عربي

الدكتور

عبد الرحمن شهبندر

صفاته الفكرية والخلقية وحفلة تأبينه

عند ما شرع المقتطف في نشر فصول « القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي » للدكتور عبد الرحمن شهبندر — رحمة الله عليه — في سنة ١٩٣٢ كانت شهرته في السياسة والخطابة والجهاد الوطني قد طبقت بلدان العرب واستفاضت الى ديار الغرب، وغلبت على شهرته في الطب مع أن السياسة لم تحل دون تتبعه كل جديد في فنه الأصيل [1]. ولكننا لم نكن نعلم أنه حذق المباحث الاجتماعية وتعمق فيها لا حذق مطالعة وتعمق دراسة في الكتب فحسب بل حذق تأمل وتجربة كذلك. ولذلك كان كل فصل من تلك الفصول [2] الرائعة يجلو لنا ناحية جديدة من الدكتور شهبندر وشخصيته الجامعة. وكان في معظم الأحيان يشرف ادارة المقتطف والقلم بيده فيجلس لا يشرب قهوة ولا يدخن لفافة يبسط الفكرة التي ينطوي عليها مقالة بيناً ما رأي علماء السياسة والاجتماع فيها ثم يوجز وجهة نظره الخاصة في تصيبها على الشرق تصيباً عدده الاصلاح العملي الموفق. وكان يأبى الا أن يصحح النجر الأخيرة بنفسه فاذا كان التصحيح في مكتب المقتطف وهو الغالب فكل زيارة كانت تفسح مجالاً قبل التصحيح أو بعده للبحث في رأي طريف أو كشف جديد في العلم أو رغبة في الاصلاح. ولم يكن الفقيد في الحديث السياسي يحصر المعنى الا في الأقل الأندر، مع أن الحرية والصحة العامة والاقتصاد القومي وغيرها من موضوعات السياسة في أعم معانيها كانت دائماً في موضع الصدر من حديثه وعنايته

وكذلك كانت لتأمل مطالعة فصوله في « القضايا الاجتماعية » وسائر فصوله في المقتطف مثل « روح الشعر في ارتقاء الأمم » و « الصلة بين الحاضر والماضي » و « فصل من حياتي » انه سيعني عظيم على اعتبار ان السياسي العظيم يجب ان يكون مدركاً ادراكاً شاملاً لسير

[1] قد سبق للدكتور في وجيز عمله ان كتب عن الفقيد « كان مدرساً للطب في مدرسة الطب في دمشق ثم في بيروت ثم في القاهرة »

[2] وقد جمعت في كتاب على حدة بعنوان « القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي »

الحياة المتصل دهماً مهماً دقيقاً التيارات الفكرية والاجتماعية التي لا يستطيع شعب أن يفلت من تأثيرها ولا أن يقطع صلته بها. قادراً على التفكير تفكيراً خاصاً المنطق والتجريد ولكن بغير أن يضحي بإزاء الناس والأشياء وحقائق حياتهم على مذبحة المنطق ومذبح التجريد، زكناً يمزج المزاج الأدبي في الشأن الخاص الغابر، والعلمي العام في القضية الخاصة، أي يجب أن يكون طبيباً اجتماعياً وزعيماً روحياً بقدر ما يكون محامياً قوي الحجة وخصيباً مفوهاً وداهية في مناورات الأحزاب والهيئات

ذلك أن ما يفعله السياسي بأسمى ما في حروف السياسة من معنى، هو شق المجاري العامة التي تتصرف فيها الحياة الزاخرة المضطربة بين الحواجز، المتقدة في خلايا الأدمغة، المتحفزة للعمل. وهو لا يستطيع ذلك الا اذا كان فهماً بين مهمته، متغلغلاً في قلوب الناس لامساً خواطرها، معبراً عنها في أقواله وأعماله مصوراً لهم المثل العليا تصويراً يحفزهم للعمل، شاعراً بالقوة التي رهن يديه وبالدعة في استعمالها. التي يجب ان يكون خادم المصلحة العليا لا متحكماً فيها وفقاً لغرض أو هوى، ناظراً الى المستقبل بغير أن تغيب عنه حقائق الحاضر، منفذاً للضمير القومي لا خاضعاً لرغبة فرد او حزب

ليس من السهل كتابة سيرة الدكتور شهبندر السياسية الآن. ولا تملك الوثائق الكافية للحكم على آرائه السياسية في موضوعات خاصة وعيناها، ولكن متى أتاح الزمن الفرصة لنشر الوثائق الخاصة بنهضة العرب في القرن العشرين، ودرس نواحي شخصية الشهبندر المتعددة، فلا ريب في أن التاريخ سيعين له مقاماً في طليعة مفكريها. فاغتياله وهو في عنفوان قوته كمفكر وزعيم وطبيب، جريمة نكراء وفقده خسارة كبيرة

وقد احتفل بدمشق احتفالاً قومياً عربياً رائعاً بذكراه الاربعينية تليت فيه رسائل ومقالات وقصائد من زعماء مصر والشام ولبنان والجزيرة العربية والعراق وأدبائها وشعرائها وقادة الرأي فيها تنشرها في ما يلي كلمة الاستاذ عباس محمود العقاد والاستاذ منصور جرداق أستاذ الرياضة بجامعة بيروت الاميركية وهي المعهد الذي نال فيه الفقيد علومه العالية

---

(١) وهي وصف صورة حسنة النفس، ونرسل على سالكها أدق مشاعره في أعماق القلوب غيره. وتقع عظيم وبرهب الجميع وتسعر عليه، يشعر بعلو ويهدي الصعاب وتنير الطريق. وأنها روحي اجتماعية تصحح العناصر وتزيح الغموض ويحلو الاشكال ما كان النفس وا... صحيح وأي عام. وهي هي أساس الشخصية الاجتماعي الذي أن عنايه الوحدة الوطنية وهي هي أداة التنظيم العقلي الذي يكسب الأمة إرادة عامة ؟ (القضايا الاجتماعية الكبرى صفحة ١١١)

١ — الشرق ومعرفة أقدار الرجال — للاستاذ النائب المحترم عباس محمود العقاد

حضرات السادة الأجلاء : كتب فقيد الأمة العربية الدكتور شهندر فصولاً شائقة عن نورنس[٤] الضابط الانكليزي المشهور فلامهُ في بعض الفصول لوماً شديداً — لأنهُ سلب «السلطان صلاح الدين الأيوبي الهدية الوحيدة التي تذكرتهُ بها أوربا لأعماله الخالدة بعد ما نسيتها ثمانية قرون كاملة . وهذه الهدية هي إكليل من الذهب قدمهُ الامبراطور غليوم يوم زيارته دمشق من نحو الجيل وقد حفر عليهِ بخط عربي مبين . إن الله يحب المحسنين . وفي سرقة الأموات عارٌ ليس في سرقة الأحياء »

فمن خطر في بال الفقيد وهو يكتب هذا الكلام أنهُ سيرقد رقدتهُ الأخيرة في ذلك الضريح الذي غضب لهُ ذلك الغضب وغار عليهِ تلك الغيرة ؛ وأنهُ سيحوطهُ برفاته وذكرى حياته كما يحوط الحارس الأمين صاحب التاج في عالم الفناء

لو كان الأمر مما يفسر بالنظر البعيد لجاز ان يقال أنهُ بعد نظر من الحكيم العليم ؛ لأن هذه الصفة النادرة كانت من أوضح صفات شهندر رحمهُ الله . فلا يصغي اليهِ جليسهُ لحظات معدودات حتى يتبين من كلامه وسياق عبارته — دلائل الأناة والتبصر ووزن الوقائع وسبر الأغوار . وربما عزَّ على بعض الناس ان يوفقوا بين هذه الصفة الواضحة فيه وبين اقدامه وطموحه الذي يشبه لهم صفة الهجوم وقلة المبالاة ، أو صفة الخيال والجموح مع الأحلام . ولا داعي للاشتباه في الحقيقة لان معرفة الواقع لا تقتضي الرضى بهِ والاستكانة اليهِ بل قد يعرفهُ المرء ليعرض عنهُ ويتخطاه ويحاول تبديله ، فيلوح لمن يراه كأنهُ ينسى الواقع ويتعلق بالأوهام وهو في صميم الأمر عالم بالواقع لا يجهله ولا يتناساهُ ولكنهُ يجتزىء عليهِ لأنهُ قد أوتي من النشاط الحيوي ما يدفعهُ الى الحركة ويناًى بهِ عن السكينة والاستقرار . وكذلك كان الدكتور شهندر رحمهُ الله ممن يتمردون على الواقع عالماً بهِ لا غافلاً عنهُ وهو مع ذلك مطبوع على التبصر والأناة وسبر الاغوار

وقد اجتمعت له أسباب ذلك من فطرته ومن تربيته ومن تجارب حياته

فهو بفطرته رجل أعمال لا يأخذ من الأشياء والحوادث إلا بمقدار ما يزجهُ عملاً قابلاً للانفاذ والاختبار ولا يمنع هذا أن يكون انجازه مقروناً بالمشقة والاقدام

وهو بتربيته قد نشأ على المعرفة الأدبية والمعرفة العلمية فلا هو محصور في معمل التحليل ولا هو مشغول بالألفاظ ولكنهُ رجل يعيش في حومة الدنيا بدقة العالم وأريحية الأديب ،

(١) مقتطف يوليو ١٩٣١ صفحة ٣٧

ويهدي مستشارين أحدهما صارم صراحة النمر وة بعم حرب جرالة الأدب ويندر أن يفلت هذه أحد المستشارين على أخيه

أما مجاربه فمن ذا الذي يصاحب الفصبة العربية ربع قرن ولا يخرج منها حافل الوطاب بتجارب الجماعات والأفراد، ومن ذا الذي يلقى الموت مرات ولا يعلم ما هي الحياة، ومن ذا الذي يلابس الناس في أيام الفلاقل والنواهض القومية ولا يعرف مدى الأمل والقنوط، وغاية الهمة والطموح وغاية الاسفاف والركود، ومن ذا الذي يكون عربيًّا حقًّا في الجيل الاخير ولا يكون انسانًا حقيقيًا بصيرًا بما في الطبيعة الانسانية من أخلاق ونزعات وحركات وأطوار؟

وليست أدعي حق الحكم على سياسة الفقيد الكبير في شؤون العربية فلست على علم وثيق بتفصيلاتها في مختلف الأدوار ولكني أرى في ما قرأته له أو سمعته منه في شؤون السياسة والاجتماع مثلاً في السداد وحسن التقدير

فمن أصدق الموازين للمحبة الوطنية قوله ان الاستقراء قد دلني له في الشرق والغرب على ان معيار حب الاستقلال في الأمة انما يكون على قدر حرمتها لغتها وسعيها لاتقانها. وان الذي لا يغار على لغته لا يغار على أمته »[1]

فهذا ميزان للوطنية لا نعرف ميزانًا أصح منه في الدلالة على الوطنية الصحيحة فان حب الوطن بمعنى حب السكان خصيصة يشترك بها الانسان والحيوان أما الوطنية التي تتعلق بالروح والعقل والضمير فتلك هي وطنية الانسان الناطق او وطنية الامة التي يجمع لها زمانه ومكانه في ماض وحاضر ومستقبل منصور

ومن الصواب الذي دعوته الى التجانس بين العرب في الثقافة والشؤون الاجتماعية. فمن الفرق في العادات والأفكار ما لا تتحقق معه الوحدة والاتحاد

ورأيه في المرأة هو رأي الحكيم الذي لا يجاري شطط الغرب ولا تكوص الجامدين وكان صريحًا في هذا الرأي سواء ما كتبه في مقالات او تحدث به في كلامه. ولكنه كان يتحرى الحكمة في أحاديث المجالس فلا يسع كل انسان جواء في بعض هذه المجالات

فمن مرة سيدة ذكية في مجتمع عصبة من الأمراء والخلاطين في اليابان وأرجنتين الا أن تكون بقية من نفاق يجودونه في صناعتهم مشرقيات

فقالت السيدة وهي تتحرى في وجوه القوم ما هذا الرجل في بلادكم الا أن تكون بقية من الذي جربتم به قديمًا معشر الرجال

وكان من الجد الذي اتصف به رحمه الله يمزح على هذا النمط في مجالسه بين الأصحاب والأدباء وله من ذلك ما تضن بتحدث به عارفوه

---

(١) راجع تقاريظ الكتب التي كتبها في العلم العربي ٤ صفحة ٧٠

وقد كان آخر عهدي به أن نفيته باحدى المكتبات في القاهرة فسألني عن مصر وسألته عن الشام كيف يسلك أهلوها في المحنة الحاضرة — محنة الحرب الاوربية التي توشك أن تنقلب حرباً عالمية لا يعجو منها موضع ولا قبيل

قال ان العقلاء يعرفون الحقيقة ويدركون أن انتصار الحرية خيرٌ للقضية العربية من انتصار الدول التي لا تؤمن بحق الحرية لشعوبها فصلاً عن الشعوب الشرقية وبدا عليه الالم وهو يقول « يا أخي : هذه الدول سرطان ، وهذا الذي يشتي السرطان ولو كان يشكو ذات الرئة »

قلت يا دكتور طبيب حتى في السياسة ! فكيف العلاج ؟ فابتسم ابتسامة حزين وقال : ربنا يلطف . . . وكان هذا آخر عهدي به ، حتى سمعت نعيه بين الشك واليقين ، ثم غلب اليقين كما تغلب اخبار السوء في كثير من الأحيان

يا للعجائب في هذه الدنيا . . . . . أما إعجاب الرجال الأفذاذ فشيء تعي به جهود الايام وأما القضاء عليهم فشيء تستطيعه شرذمة من الطغام

سبحانك اللهم لك فيما تريد حكمة . ولعل من حكمة هذا المصاب ان يعرف الشرق أقدار الرجال

---

٢ — نشأته الفكرية والخلقية في جامعة بيروت الاميركية

للأستاذ منصور جرداق
استاذ الرياضة العالية فيها

في أواخر القرن الماضي دخل الكلية السورية الانجيلية ببيروت (الجامعة الأميركية الآن) شاب طويل القامة متين البنية اسمه عبد الرحمن صالح شهندر تلوح على محياه علامات الذكاء والنباهة واللطف والوداعة ودماثة الأخلاق . وشاءت الأقدار أن ينضم الى صفنا فصرنا معاً في الدائرة العلمية وانهينا في تموز (يوليو) ١٩٠١ ناثلين معاً رتبة بكلوريوس علوم ثم غاب سنة استجماعاً للقوى ورجع عبد الرحمن الى الكلية ودخل الدائرة الطبية حيث صرف أربع سنوات ونال صيف ١٩٠٦ رتبة دكتور في الطب

وبما انهُ كان الأول في صفه وممتازاً في دروسه فقد عين بموجب القانون خطيباً عن صفه وطبيباً للمدرسة عام ١٩٠٦ — ١٩٠٧ وهكذا تسنى لي أن أصحبه مدة تسع سنوات كنا في خلالها صديقين حميمين يجمعنا حب المعرفة والدرس والفلسفة والرغبة في خدمة الوطن خدمة صادقة شريفة تخدمة زهرة الشبيبة وتهذيبها وتثقيفها ونشر العلوم الصحيحة بين أفراد الأمة وتسهيل تحصيلها للناشئين ولذلك أنشأنا في سنة « جمعية تهذيب الشبيبة السورية » التي كان قد أنشأها طلبة الكلية تلك الغاية السامية كما تشهد تقاريرها السنوية المحفوظة في مكتب الجمعية

لقد كان عبد الرحمن مثال التلميذ النجيب بجده واجتهاده وذكائه ونباهته وحدة ذهنه

ومثابرته على الدروس والمطالعة واصغائه بكليته الى واجباته المدرسية والقيام بها خير قيام وطاعته التامة للقوانين لأنه كان يتدبر الواجب ولا يتهاون في شيء مهما يكن زهيداً وطفيفاً عملاً بالمثل القائل « التقصير في الأمور الزهيدة نقص خطير في المرء ويصده عن الوصول الى درجات الكمال ». أضف الى ما ذكر ذاكرة قوية وسرعة خاطر وخيالاً فسيحاً خصيباً وتصوراً سامياً دقيقاً ودوقاً سليماً وضميراً شريفاً للتفوق وهمة عالية وارادة قوية وروحاً عظيمة في النظر والتقصي والتدقيق والتحليل والجمع — صفات رجال العلم في كل عصر ومصر

ناهيك بتضلعه من اللغة العربية واطلاعه الواسع على تاريخ الأمم وتاريخ الاسلام وعلومه التي فيما يتعلق ببيانها وبلاغتها وفصاحتها وهذه الأسباب والبواعث شخصيته المتازة التي جعلته الجمعية العلمية السورية بأكثرية ساحقة ليكون خطيبها الأول في احتفالها السنوي سنة ١٨٨٧ دون ان يسعى اليه أو يكلم أحداً يؤيده في الانتخاب. وكذلك اختارته عمدة الكلية وهو لا يزال في الدائرة الطبية ليمثل المدرسة تمثيلاً رسمياً في ترحيب خليل باشا رئيس بيروت والصدر الأعظم سابقاً في أثناء زيارته الرسمية للكلية بالمنتدى الكبير وقد كان لخطبته وقع جميل في نفس الوالي مما حمله على بذل الجهد لتخليص عبد الرحمن من التي في قرأن « فريقية بسبب وشاية من أحد جواسيس السلطان عبد الحميد في ذلك الحين

أما صفات القلب الحميدة وأخلاقه فقد كانت سامية جداً في نظر التلامذة والمعلمين والأساتذة لأنه كان صادقاً بريئاً عفيفاً متزناً طائعاً للقانون محباً للخير محباً للتعليم ناصح الضمير يحب الخير لجميع البشر ومساواتهم في الحقوق والواجبات ويسلك بموجب هذه المبادئ الشريفة الوطنية والتواضع والأنس وابن المروءة والشهامة والأمانة وعزة النفس وسمو الفكر وسعة الصدر وكرم الأخلاق يسلم الركبان اليه ويخضع له سراة الاعيان بفضل غيرته وحماسته وبغضه وطنية وحبه لجميع لاعتقاده الراسخ ان الأمة كالجسم الحي والحي تكون أعضاؤه صحيحة سليمة يجب ان تستفيد من قوى جميع أفرادها وما هلكت خسارة وتأخرت الاقطار التي يصيبها الضعف والانحطاط والتأخر والموت والزوال

هذه صفات الفقيد وهذه الأدبية التي في تعليم الأمة والوطن وقد كانت أود أن أتبع في الوقت الذي أرد فيه ان أختصر ما كانت تختص به من الفقيد الكبير في الكلية من الرأي والمشورة وبيان ترقي الأمة وتقدمها بالعلم والخطط والوسائل الكفيلة للنهوض بالوطن من كبوته والوصول بالشعب الى الكمال الذي تتوخاها بقية أخرى رسالته السامية التي قام بها بين أبناء الأرض وما زالت تفتح الفتح العربي الاسلامي